قراءة في كتاب

أدب الأوزبكي الإسلامي

تأليف د. شاه رستم غياث شاه موساروف

ينسجم هذا البحث مع أهداف جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وخطة عمادة البحث العلمي التي تسعى للتعريف بآداب الشعوب الإسلامية، والتركيز على الروابط الفكرية، ووحدة المنبع والهدف، وفتح آفاق واسعة في مجال التأثير والتأثر، والتي ستساعد على القيام ببحوث ودراسات كثيرة، في مجال الأدب المقارن.
قدّم له معالي مدير الجامعة، د. محمد بن سعد السالم. إذ عبرَّ عن إعجابه وأمله في ظهور دراسات مشابهة لآداب الشعوب الإسلامية الأخرى.

بقلم: أمين سليمان الستيتي
الأردن

وجاءت الفصول السبعة فيه لتشكل هيكل البحث الذي حوته ثلاث مئة وأربع وثلاثون صفحة، مع حواشيها وفهارسها.

عرّف البحث بتاريخ أوزبكستان قبل الإسلام، وولج إلى الفتوحات الإسلامية التي بدأها عبد الله بن زياد، زمن معاوية ابن أبي سفيان – رضي الله عنه –، ثم سعيد بن عثمان، وبعده مسلم بن زياد، ثم قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي أتم فتح بلاد ما وراء النهر، وثبّت الإسلام في قلوب السكان الأوزبكيين، في (زرفشان، وفرغانة، وقشقاداريا، وخوارزم،وغيرها).

ثم شارك تجار المسلمين في نشر الإسلام وتثبيته بعد استقرار الأوضاع السياسية، والأمنية في حكم (نصر بن سيار).

لقد كان لكتابة قوانين الدين، والفقه الشرعي – بشكل أساسي – باللغة العربية أثر كبير في انتشار اللغة العربية. ولعل الزمخشري: محمود بن محمد، العالم المشهور في اللغة العربية، وعلوم الدين، من أوضح الأدلة على مدى انتشار العربية، واهتمام الأوزبكيين بها إلى الحد الذي يمكن أن يصل إلى اعتبارها اللغة الرسمية، ولغة العلم، والبحث، والعبادة.إذ ظل الخط العربي، والحرف العربي بأنواعه مسيطرا في كتابة اللغة الأوزبكية حتى دخول الاحتلال الروسي، الذي حول كتابة اللغة الأوزبكية إلى الحروف اللاتينية (ص ٢٠).

لقد أدى التمازج الاجتماعي مع الفاتحين العرب إلى انتقال كثير من العادات الدينية، والاجتماعية،

وحتى اللغوية، والأدبية، ومنها: الحكايات الشعبية، والتي اتخذوها داعمة لتعليم اللغة ؛ خدمة للقرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وصار الشعب الأوزبكي (التركي) جزءًا عضويًّا في جسد الأمة الإسلامية، وظهرت فيه كل الظواهر الإيجابية، وغير الإيجابية، من العادات الشرعية الأصيلة: كالاحتفال بالعيدين: الفطر والأضحى. والبدعية: كالاحتفال بالمولد النبوي، والإسراء والمعراج، والنصف من شعبان... وغيرها. حتى عادات الدروشة التي نشرها الصوفيون البدعيون (ص٢٤).

حاول بعض الدارسين تقديم بحوث تتلاءم مع المقاييس الروسية (السوفيتية) التي كانت ترفض الأدب الديني الإسلامي خاصة، والتي مارست الإذلال على الأدباء الأوزبكيين، مثل: (يُساوي، وسليمان باقر غاني، وصوفي الله يار، وهويدا... وغيرهم)، إلا أن البحث الواعي لا يمكنه أن يتجاهل الجذور الإسلامية التي لا تخفى على الدارس، أيًّا كانت توجهاته. ذلك أن الأدباء الأوزبكيين ظلوا مرتبطين بجذورهم الإسلامية، حتى أزاح الله – سبحانه – عنهم غُمَّة الاحتلال الروسي، وبدأت تظهر الدراسات العلنية للأدب الأوزبكي الإسلامي، والتي اعتبرته تقليدا أدبيا موحدا (ص٢٧).

لم يغفل البحث الحديث عن نشوء اللغة الأوزبكية، وكتابتها، وانتمائها إلى اللغة التركية الأم، وظهور اللغة العربية معها كلغة للدين والعلم، وحتى التداول بين الخاصة، إذ صارت لغة التأليف والأدب، وقد أثبت ذلك عدد من الباحثين، مثل: د. قاسم صادقوف، ود. ناتن ملاييف، ود. صفروف، وغيرهم.

وكان للإسلام تأثير واضح على الأدب الشعبي الأوزبكي، حيث حمل قصصهم الشعبية تعاليم الإسلام، وكأنها عمدت إلى تربية الأجيال الناشئة بها، واعتزت بأخذ الكثير من القصص العربية، وترجمتها، التي، صاغت على منوالها، مثل قصة (العنقاء) التي صاغها (يوسف أوغلي) متطابقة مع رواية (الكلبي)، مع مراعاة خصوصية الأدب الأوزبكي.

ووقف د. شاه رستم عند قصة آدم، وزوجته حواء عليهما السلام، وما دخلها من إسرائيليات، في حكاية الطشقندي (ز. يوسفوف، وخرافات، وبعض الخيال. ولعل (ربغوزي) هو الذي وضع جل أسس الرواية، التي تبين بدء خلق البشرية. وممن روَوْا مثل هذه الحكايات: (قادر قانديموف) وكذلك (شيرنوئي) الذي تحدث عن سير الأنبياء، والحكماء. ولم يخرج المؤرخ (أبو الغازي بهادر خان) في كتابه (شجرة الترك) عن الاعتماد على الحكاية الإسلامية.

وظهرت حكايات شعبية استمدها مؤلفوها من الآيات القرآنية، والقصص التي وردت في القرآن الكريم، كقصة أهل الكهف، التي نسجها كثير من الأوزبكيين، مثل ستياريف، وسعيد بيك حسن. وينقل الباحث عن أ. كريمسكي أن (٦٤ مؤلفًا أعطوا تفسيرات مختلفة للآيات الكريمة عن أهل الكهف) (ص٧٠).

وأثبت البحث أن الأدب العربي في بلاد ما وراء النهر، ومنها (أوزبكستان) قد حقق ازدهارا في القرنين الثالث والرابع الهجريين، إذ صارت مدن هذا الإقليم مراكز ثقافية، وسادت اللغة العربية كافة المعاملات الرسمية، والكتب العلمية. وقد سجل أبو منصور الثعالبي، العالم النيسابوري، في مجموعته (يتيمة الدهر) معلومات عن سبعة وأربعين شاعرا من شعراء العرب في تلك الفترة في بلاد ما وراء النهر، منهم: أبو الحسين المرادي، وأبو الطيب محمد بن خاتم المصبعي، وأبو أحمد بن أبي بكر الكاتب، والإمام البخاري الذي خصه بالحديث المفصل (ص ٨٣) وما بعدها ؛ ليؤكد مدى اهتمام تلك البلاد بالحديث

الشريف، حفظًا، وشرحًا، وتدوينًا، فقد رفع مدرسة الحديث إلى مستوى الأمجاد العالمية.مع غيره من علماء ما وراء النهر، مثل: الترمذي، الذي ترك نحو أربع مئة مؤلف في علوم الدين الإسلامي الحنيف، والعلوم الأخرى، والإمام محمد بن موسى الضرير الترمذي، صاحب الجامع الصحيح، والمرغلاني، صاحب كتاب (الهداية) الذي وضح فيه كثيرًا من القوانين الشرعية التي أقرها له علماء المسلمين في أقطار الدنيا (ص٨٧).

ومن الكتب التي تخصصت في دراسة اللغة الأوزبكية كتاب (ديوان لغات الترك) لمحمود كاشغري، فقدجمع في طياته معلومات شاملة عن لغات الترك، وقبائلهم، وأفخاذها، وتقاليدهم، وإبداعهم، وديانـاتهم، وأثر الإسلام الحنيف على التقاليد الأدبية التركية عامة، والأوزبكية خاصة. حيث قسم الأدب الأوزبكي إلى:

١. الشعر الغنائي.

٢. القصص والحكايات الشعبية.

٣. الأحاديث النبوية الشريفة.

٤. الحكم والأمثال.

ووقف المؤلف مع كتاب (قوتا دغو بيليك) ليوسف خاص الحاجب، الذي يعني: (المعرفة المباركة) وركز على (الأدب والتهذيب) وألفه بين عامي ٤٦٢ – ٤٦٣ هـ، وجعله في قرابة (٦٥٠٠) ستة آلاف وخمس مئة بيت من الشعر، يكاد أثر القرآن الكريم، والحديث الشريف، والقيم الإسلامية عمومًا، لا يفارق واحدًا منها، كالشرف، والكرم، والصبر، والحلم، والتهذيب و... والدعوة واضحة فيه إلى التمسك بطريق الدين.

ورأى أن (يوسف خاص الحاجب) استعمل فن التلميح الذي أغنى الأدب الأوزبكي الإسلامي ، وهو الفن الذي يشيع في الأدب الروحي، وترجم له ما دلّل به على أثر الحديث الشريف، في قوله:

« **"السلام" للإنسان سلام وهناء**

وبطرح السلام يلقى النعيم والطمأنينة

العظيم من يسبق الصغير بالسلام

وبسلامه ينهي كل الأعمال

السلامة والعافية بانتظار من يبدأ السلام

ويهنأ من يرد السلام بـ (عليك السلام)»

أمّا وقفته مع (أحمد يغناكي) وكتابه (هبة الحقائق) فقد وضح الهدف من تأليفه، وهو (تفسير عدد من المسائل والقضايا الاجتماعية، والسياسية، والنفسية، والروحية، والأخلاقية، على أساس تعاليم الدين الإسلامي، إضافة إلى مدح الرسول ﷺ (والاستفادة من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على الصدق والعلم والبعد عن البخل.... وغيرها من تعاليم السنة المشرفة) (ص ١٠٧).

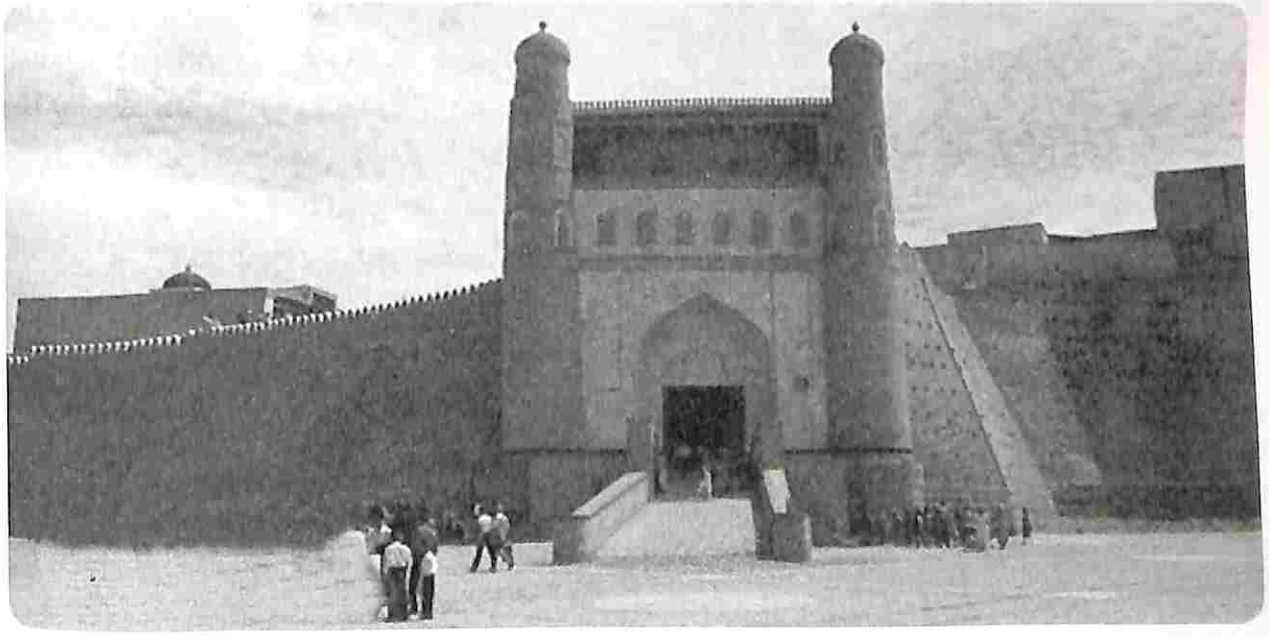

كما جعل (نصر الدين برهان الدين أوغلي ربغوزي)من قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم مادة كتابه المشهور (قصص ربغوزي)حيث أقسم أمام التاريخ أنه ألفه (بسبب رغبته واهتمامه الشديدين بسير الأنبياء)وكتب أن وجه محمد ﷺ (أحسن من نور الشمس والقمر. وقد أسهمت قصصه في نشر الثقافات الإسلامية.

لكن (أحمد يساوي)في مؤلفه (مناجاة نامة)يصرح بأن (مصادر حكمته الأحاديث الشريفة، والتافهون من الناس هم الذين لا يقبلونها، لأن فيها معاني القرآن الكريم، والنبي (لا ينطق عن الهوى)(ص١٣١)، وقد ضمنها كثيرا من تعاليم الإسلام، وأركانه، وسننه، وقواعده الروحية، والمادية، وهو بذلك قد وضع (الأسس لتيار جديد في الأدب التهذيبي الأوزبكي، القائم على الأفكار الإسلامية)(ص١٣٨).

وعلى نهج يساوي جاء (سليمان باقر غني)في (كتاب باقر غني)الذي عدّه النقاد السوفييت مع قصيدته (كتاب آخر الزمن)قصيدتين دينيتين متزمتتين، يدعو فيهما إلى التذلل كالعبيد، ويحاول بث الرعب في قلوب الناس، عن طريق طرحه لعذاب الناس وحتمية يوم القيامة (ص١٣٩).

حديث د. شاه رستم غياث عن (الأدب الأوزبكي في عهد التيموريين)يرسم صورة الدولة التي قامت على أساس إسلامي،وعملت على نشر الدين الحنيف، وتعليم الناس تفسير القرآن الكريم، والحديث الشريف؛ مما أسهم في ظهور أدباء أوزبكيين في هذا العصر لا سبيل لحصرهم، ومنهم: (شيخ زاده عطائي، وحافظ الخوارزمي، ولطفي الشاسي وعلي شيرنوائي في كتابه (تاريخ الأنبياء والحكماء)وهو مؤلف نثري لم يقتصر فيه على سير الأنبياء، بل أضاف لها بعض الفلاسفة، وتحدث عن بعض أفكارهم. ومنهم أيضا ظهير الدين محمد بابر، الذي اتسم شعره بالمغالاة في كتابه (المبين)الذي وجهه إلى ولديه ليعلمهما تعاليم الشريعة، فكان أسلوبه ميسرا، حوى كل التعاليم الشرعية والعقدية، بلغة سهلة، وشعر تعليمي، خال من العواطف والانفعالات.

ومنهم عبد الله خان الشيباني العبيدي، الذي حكم بخارى بين عامي ٩٤٠ – ٩٤٦ هـ، وكان حاكما مثقفا، له دواوين شعرية باللغة العربية، والفارسية، والأوزبكية، وقد عده الدارسون السوفييت ممثلا للأدب الديني، ورفضوا اعتباره من المبدعين، وقيموا تراثه بأنه (.. يدعو من ناحية إلى التشاؤم والزهد،... ويمجد خطّي الدين والأدب الإقطاعي الإكليريكي)(ص٢١٢).

ويعد الباحث أن الصراع على السلطة بعد موت تيمور، واهتمام الحكام بالعبث واللهو أثر على الحياة الثقافية، وأدى إلى انتشار الجهل، والفقر، وانحطاط الأدب، بل وإلى سقوط البلاد في يد الروس. فقد تحول العلماء إلى طلاب دنيا، بطريقة جشعة، واستغلوا الدين لذلك، فكانوا سببا في تخلف الناس وإفقار البلاد والعباد.

من هنا ظهرت ثقافة جديدة عبرت عن ترك الأدب الأوزبكي الديني المجال لهذه الثقافة التي تدعو إلى تعليم الجماهير، وتطوير البلاد، والدعاية لتلك الخطوات ونتائجها. مع أن أدباء هذه الفترة لم ينسلخوا عن الدين،ولم ينسوا أن الدين يحث على طلب العلم، فكان في أدبهم كثير من الومضات القرآنية، والنبوية المشرفة، تحث الناس على التمسك بروح الأخلاق العالية، في مثل ما نجد في مؤلفات (بهبودي، وأولاني)إضافة إلى الأدباء الذين ظلوا ملتزمين، ولم يحيدوا عن الخط الديني للأدب الأوزبكي، وهم الذين لم يكن من الممكنأن يظهروا كأدباء مبدعين في زمن الاحتلال الروسي. ومن ترجمة أشعارهم قول فيروز:

« إن شئت ألا تتعرض لتجارب الحسرة والندم

فاقنع بما رزقك الله

وكن دائما صبورا

فلا تتحسر عندئذ على شيء»

وقد وصل شعر الهجاء قمته عند (مقيمي وذوقي ومحمود)على قاعدة الثقافة الجديدة، وإدانة الأمية والتخلف، والانحلال الأخلاقي، وظلم المحتلين أحيانا. ولعل رجال الصوفية الذين أظهروا صورة سلبية للمسلم الذي يدعي التمسك بالدين، بينما هدفه الحقيقي (الدنيا)، هي الصورة التي كانت محط الهجاء، مثل قول مقيمي:

« يضع على رأسه مرة قبعة، ومرة عمامة.
يمسك في يده عصا،وفي رقبته إثم.
تُب أيها الصوفي، فمثل حالك يعني
أنك تغرم بكل النساء والفتيات.
وعجائب الصوفي أنه يبحث دائما عن مكان يستضاف به للطعام،
ويحسب أن كل شيء مسموح له »

بينما لم يكن العلماء الحقيقيون يفدون على الحكام، بل كان الحكام هم الذين يتقربون إليهم ويطلبون ودهم، ولما انقلبت الصورة انحط المسلمون، وصار هؤلاء المنحرفون مع المفتين يفتون للحكام، ويمدحونهم،ويبررون أعمالهم، وطغيانهم، وتركوا الفقراء يواجهون الظلم والتعسف والجور، وقد رسم الشاعر عوض، أوتار هذه الصورة بقوله:

«أيها الذين بتعصبكم عشتم لأنفسكم،
وأوصلتم الناس إلى الفقر،
أحدكم قاض والآخر مفت،
أقمتم الحفل فوق تعاسة الشعب،
ولكي تبقونا في غياهب الظلمات،
لم تمنحونا الحرية،
وأقفلتم علينا في زنزانة مظلمة،
على هذه الجرائم طبعا ستعاقبون،
فبظلمكم أفلستم الأمة،
لو أنكم فتحتم المدارس،
وأعطيتم المعرفة،
لأمكن أن نصبح بشرا،
فبدون المعرفة جعلتم بعضنا كالحيوانات،
كما أفاق عوض سيفيق الناس ويسألون:
لماذا قضيتم على الأمة ؟؟؟؟»(ص١٣١)

والشاعرة (عنبر)ترسم صورة لمن جمع المال الكثير ليحج به، ولكن ليس لوجه الله، بل ليحمل لقب الحاج:

« مالا كثيرا جمع، سافر إلى الحج كي يصبح حاجا
وبعد العودة من الكعبة، بقي على حاله حاجنا »

ويؤكد د.شاه رستم غياث ارتباط شعراء هذه الفترة بالدين ، وعدم تخليهم عن عقيدتهم، وشواهد ذلك كثيرة، منها قول حمزة:

«إذا كنت من أصحاب التصرف الحسن
فستحصل على الاحترام في الدنيا والآخرة».

❖ ❖ ❖

عُرف بتصرفه الحسن بين الكفار
وقبل نزول الوحي عرف بالأمين

أما الشاعر (تولي)فهو مناضل من أجل العلم والمعرفة، ولا يمكن تصور وجه المجتمع الأخلاقي بدون الإسلام، ومن شعره:

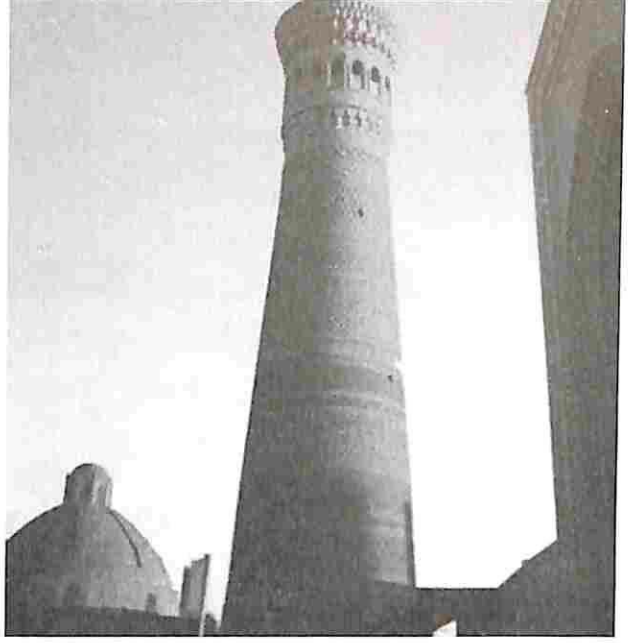

« علينا أن نتعلم،
وعلى آبائنا أن يسمعونا،

❖ ❖ ❖

قال النبي في العديد من أحاديثه:
فليقرأ كل مسلم القرآن،
يحيا العلم، يحيا الشعب،
... نمنا طويلا، متى نستيقظ يا إلهي ؟؟

والوطني الحقيقي هو (عبد الله أولاني) الذي انطلق من الإسلام إلى الوطن ؛ ليظهر مسلما يريد الخير للوطن، ومن مؤلفه التربوي (أتراك غولستان) أو (الأخلاق) قوله:

« ينور الله الناس دون استثناء،
إلا أن التربية وحدها توصلهم إلى الكمال،
والطفل المتروك يصبح ويلا،
وإذا ربيتم روحه يصبح جناحا،
وإذا ربي ابن الحداد يصبح عالما،
وإذا لم يربَّ حتى ابن لقمان يصبح مهملا،
ابن نوح اقتدى بالسيئ فأصبح بلا ضمير،
وإذا ربي الكلب جيدا يخدم صاحبه بأمانة».

وربط د. شاه رستم الفصل السابع بالعصر الحديث، عصر الاستقلال، الذي تأكد فيه انتصار القيم الإسلامية، وثباتها في الأدب الأوزبكي، شعرا ونثرا، واتضح أثر النصوص الدينية، عند معظم الأدباء، مثل: عبد الله عارف، وعبد الرحمن القادري، وأنور حاجي أحمد، وشكور قربان و... غيرهم، الذين أكثروا من الاقتباس، فوصلت نصوصهم إلى قلوب الناس، وأثبتوا أن مصطلح (الأدب الإسلامي) يمكن أن يطلق على مجمل الأدب الأوزبكي، وكذلك مصطلح الأدب الصوفي، طيلة عشرة القرون التي عاشها الأدباء في ظل هذا الدين الحنيف، وما كان للصوفية من أثر على الناس في كل بلاد ما وراء النهر عامة، وأوزبكستان خاصة.

وإذا ظهر في عهد الاحتلال الروسي بعض التعبيرات الإلحادية،فإنها لم تتجاوز الحدود، بل كان بعضها بحذف كلمة، أو إضافة أخرى ليتسنى له مسايرة الثقافة الروسية، ويسهل نشره.

ويؤكد د. شاه رستم عدم القدرة على الإحاطة بالكثير من الأدب الأوزبكي، بل ما وقع في يده قليل من كثير، ويبقى الباب مفتوحا للباحثين، كي يتعرفوا على ما لم يستطع الوصول إليه.

ومع حرصه على تقديم بحث متكامل إلا أنه يكاد يغفل الجوانب اللغوية في دراسته، وكان أقرب ما يكون إلى المؤرخ الأدبي، الذي جعل المعاني مدار بحثه، ولم يكد يتجاوزها إلا نادرا. فلم يوازن بين الشعراء، ولا وضعهم في طبقات، بل لم يضع قاعدة يضع على أساسها النصوص في الإطار الأدبي أو في غيره.

وقد يكون يسيرا عليه أن يتابع بحثه في الأدب الأوزبكي، ليتناول الجوانب اللغوية والبلاغية، وغيرها من الجوانب المتعلقة بالنصوص الأدبية،والتي لا يغفلها النقاد عادة في كل لغات العالم.

ولعلنا نرى دراسة مقارنة لأدباء أوزبكستان مع إخوانهم من أدباء الأمصار الإسلامية الأخرى، خاصة الناطقة بالعربية منها، لما لهم من باع في مجالات الأدب الشعري والنثري، يكاد لا يجارى.

وعسى أن يكون ذلك في إطار الدلالة على مدى ما يحققه الأدباء الأوزبكيون من درجات الوحدة الإسلامية، وإن اختلفت الأعراق، ذلك أن انتماء المسلم لعقيدته هو الأصل، ولا يتعدى الانتماء الوطني أن يخرج عن قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [الحجرات].

والأمل كبير في أن يكون ذلك قريبا ■